بحوث قسم اللغة العربية وآدابها

القضايا الاجتماعية في زقاق المدق لنجيب محفوظ

الباحثة/سامية محمود محمد مسعود

الملخص:

رواية "زقاق المدق" ١٩٤٧م، واحدة من إبداعات الأديب المصري العالمي نجيب محفوظ، قدم فيها صورة عميقة للبيئة الحقيقية في زقاق صغير من أزقة القاهرة، وهي قصة حياة أهل الزقاق إبان الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال شخصيات الرواية التي تعيش على هامش الحياة والمجتمع، ويقوم البحث بتحليل صورة المرأة في الرواية من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية وهي البعد الاجتماعي، والبعد النفسي، والبعد الجسمي.

Abstract

ZOQAQ AL MIDAQ"١٩٤٧" is one of the best novelties of the worldly Egyptian Novelist "NAGUIB MAFOUZ" he introduced a deep image for the real environment in ZOQAQ AL MIDAQ, which is the smallest part in the Cairo. The story is about the residents of the ZOQAQ AL MADAQ people during the Second World War. This is shown through the novel characters which live on the margin of life and society. This research addresses woman's life and its image in the society in the period depending on three major dimensions, which are: social dimension, psychological dimension, and physical dimension.

مقدمة

نجيب محفوظ (١١ ديسمبر ١٩١١- ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦) هو أحد أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، وأكثر أديب عربي ترجمت رواياته إلى العديد من اللغات، تصنف رواياته ضمن الأدب الواقعي، مثل محفوظ لسان الشعوب وصوتها الصارخ في التعبير عن آمالها وطموحها والتغيير الذي تطلع إليه؛ لذا أطلق عليه رائد الرواية العربية وأميرها.

"فيحتل أدب نَجيب محفُوظ في الثقافة العربية المعاصرة مكاناً مرموقاً، قبل أن يفوز بجائزة نوبل بأمد طويل... فإن نَجيب محفُوظ هو أكبر من يدل على مصر روحاً وضميراً، والروح لا يقتصر مجازها على عصر دون آخر، فهو ابن مصر القديمة ومصر القبطية ومصر الإسلامية ومصر العربية الحديثة، والضمير لا يقتصر على زاوية دون أخرى من زوايا النفس والمجتمع، لأنه الضمير الحضاري للوطن والأمة... وأدب نَجيب محفُوظ يجسم بعد روح مصر وضميرها وهو الرؤية الحضارية الإنسانية التي تشمل العالم".( )

وتعتبر مؤلّفات محفوظ بمثابة مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية في مصر من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن اعتبارها تدويناً معاصراً للوجود الإنساني كما أنها تعكس رؤية المثقّفين على اختلاف ميولهم إلى السلطة.

مفهوم زقاق المِدَق:

الزقاق كما ورد في "مختار الصِّحاح" هو السكة، يذكر ويؤنث، وجمعه زُقّان وأزقّة. وهو كما ورد في المعجم الوجيز الطريق الضيق نافذاً أو غير نافذ. أما المِدَق – بكسر الميم أو بضمها – فهو ما يُدق به كما ورد في مختار الصحاح وفي الوجيز.( )

وورد في المعجم، يتبعه أنكَ تزق أشياءك إذا حملتها مرة تلو المرة، وزقّت الرِّجْلُ إذا تزحلقتْ، وللعامة مفهوم لا يخرج عن هذا الإطار. ولعل الزق يتناول الأشياء الدقيقة، كما يزق الطائر إلى فراخه، ومنه . بكسر الزاي ِ زقّ الخمرة، وهو وعاء لها، لأنه يزقّ أي يحمل، أو أنه ضابط لا منفذ له. وهذا المعنى نقل إلى الموضع الذي تعانى فيه أمور الزقّ.

وهنا نرى أن الزقاق، بإضافته إلى "المِدَق"، قد اكتسب شَخصيّة متميزة (لغوياً على الأقل) كأي كائن حيّ، فأصبح علماً على مكان يُدَقُّ فيه أي شيء من حنطة أو ذرة أو حمص أو عدس وما شاكل ذلك من مستحضرات طعام الناس، انطلاقاً من لفظة "دقَّ" إذا ضرب جسداً خاصاً بما هو أقسى وأغلظ ضرباً قوياً لغاية هي استخدام الحصيلة من الدقّ. ( )

فـ"زقاق المِدَق" فقد كتبها نَجيب محفُوظ متأثراً بالاتجاهات التي ترفض البطولة الفردية، وهي تبدو كأنها رِواية (بلا بطل) وتتجمع خيوط الرِّواية.. لتشعر أن البطل الحقيقي هو الزقاق نفسه.

نشرت رواية " زقاق المدق " عام ١٩٤٧، وهي أول رواية تترجم إلي اللغة الإنجليزية، وكانت سببا في شهرته العالمية، فيها أكد علي أنه مصور بارع للحياة الاجتماعية. فقد استطاع أن يقدم فيها صورة عميقة للبيئة الحقيقية في زقاق صغيرمن أزقة القاهرة، في مرحلة الحرب العالمية الثانية، يستعرض فيها البيئة الاجتماعية بطبيعتها المفككة اجتماعيا والمتردية اقتصاديا من طرف مجموعة من الشخصيات الممزقة في واقع متردي ومنحط هو واقع ذلك الزقاق وما يحويه من مفاسد في المجتمع.وقد جاء اسم " زقاق المدق " مما يعني أن محفوظ قصد تحليل المكان بما فيه من قضايا اجتماعية وسياسية.

أبعاد التحليل في الرواية:

بدأ نجيب محفوظ أحداث الرواية بوصف الزقاق وصفًا يطابق الواقع، حيث رسم معالم المكان بدقة متناهية، وهي بداية ترسخ وتقوي أهمية المكان وتعمق أولوياته من خلال تسليط ضوء البداية عليه.

"تنطلق شواهد كثيرة بأن زقاق المِدَق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدري. أي قاهرة أعني ؟.. الفاطمية ؟.. المماليك ؟ السلاطين؟علم ذلك عند الله سبحانه وتعالى وعند علماء الآثار، حيث إن زقاق المدق يحمل بين جوانبه نكهة الأحياء القديمة بما فيها من أرابيسك، وبما فيها من حياة اجتماعية مغرقة بالبساطة فينتهي سريعاً كما انتهى مجده ببيتين متلاصقين عند باب يصل بحي الصنادقية ومن الجانب الآخر ينتهي الزقاق ليصل بالحوذية ثم إلى الحلمية. " ( ).

وإذا كانت الحارة هي المكان المفضل لدى الكاتب، فزقاق المدق حارة لها خصوصيتها وكينونتها المميزة، فوصف الزقاق بالمدق يعني أن محفوظ يقصد تحليل المكان بما يعج من قضايا اجتماعية وسياسية.

فالزقاق في حقيقة الأمر هو البطل الحقيقي لأحداث الرواية، وما حميدة إلا شخصية تجسد الحدث وتبدأ منها الأحداث في التصاعد والنمو وتنتهي بها.

أما باقي أهل الزقاق فهم أناس بسطاء اختار منها محفوظ ما يساعد على تجسيد عمله الدرامي، حيث يروي حكاية كل شخصية في الحي من خلال الزقاق والمقهى الصغير حيث يلتقط محفوظ الواقع ويعبر بإبداعاته الأدبية ما يراه بعينه الفنية الحارة التي أبصرت ضياع القاهرة إبان الحرب العالمية الثانية.

أولاً:البُعد الاجتماعى:

يعكس الأدب علاقة الإنسان بالآخرين وبنفسه، كما يكشف عن تصوير الواقع المحيط به، لذلك يحتاج الإنسان إلى فهم الأعمال الأدبية وتحليل مضامينها.

يهتم علم الاجتماع بدراسة محتوى الآثار الأدبية، فهو بمثابة منهج من مناهج النقد الاجتماعي للأدب، ويبقى مصطلح الانعكاس من أهم مصطلحات هذا المنهج، إذ يعتقد رواد منهج علم الاجتماع أن الأدب ما هو إلا انعكاس لما يموج في المجتمع من صراعات وهموم فردية وجماعية، حتى أن هناك من يذهب إلى أن الأديب ليس سوى صوت الجماعة التي ينتمي إليها، فالأديب هو ابن بيئته وصنعة مجتمعه.

ولا جدال في أن روايات نجيب محفوظ التي تصنف تحت نمط الواقعية الاجتماعية تميزت بقدرتها الفائقة على رسم الملامح والسمات الاجتماعية لمجتمعه، فكانت بصمة البيئة والمحيط الاجتماعي والسياسة لها تأثيرات قوية على كتاباته الأدبية.

تعد رواية "زقاق المِدَق"، امتدادا لما قبلها من أعمال، فقد غاص محفوظ برؤيته فى تفاصيل الزقاق، وسيكولوجية سكانه، الذين يعانون كل ضغوط الفقر، وطرح سلبياته كرمز للمجتمع المصرى أثناء الحرب العالمية الثانية وهي حرب فرضت عليه دون سبب منطقى ولا مصلحة للبلاد.

وكأن الزقاق نداء مخلص، لدراسة وقراءة وفهم النفس المصرية، وممثلا للبيئة بكل ما تحويه من أزمات تسبب فيها الساسة وولاة الأمر.

اهتم محفُوظ بالمضمون الاجتماعي والمعاني الثورية،فقد تجلت في رؤيته الثاقبة لمجتمع الزقاق والحال الذي سيؤول إليه نتيجة زحف المدنية باتجاه الأحياء الشعبية والتاريخية، وسعي هذه المدنية إلى تفكيك بنية الوعي المجتمعي الساكن، بل إلى العبث بحياته إلى درجة التدمير.. وأيضاً كيفية حدوث الانسلاخ التدريجي من قيم الزقاق وعاداته.

فهذا الزقاق "يضج بحياته الخاصة، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحَياة الشاملة وتحتفظ إلى ذلك بقدر من أسرار العالم المنطوي".( )

تدور أحداث الرواية حول الفتاة الشابة "حميدة" فهي العمود الرئيسي لمجري أحداث الرواية، بها تبدأ وعندها تنتهي، فهي فتاة جميلة تنظر إلي الزقاق بدونية لكنها لا تملك وعيا كافياً لكي تثور، يدفعها حبها للمال بالتضحية بكل شيء فهي تري أن فتاة مثلها لا يليق بها أن تعيش في هذا الزقاق، وهذه الدناءة والقذارة التي تملأ المكان كانت من الأمورالتي أشعلت في حياتها نقما علي حياتها وعلي الزقاق وسكانه.

تجد حميدة في "عباس الحلو" الملاذ والمخرج لها من الزقاق فتوافق علي خطوبتها منه، لكنها لم تجد جرجا في فسخ خطوبتها منه عندما تقدم لها "سليم علوان" أغني رجل في الحي، لكن أمر الزواج لم يكتمل لمرض أصاب جسده، خرجت حميدة رمز التمرد تبحث عن طريقها وساعدها علي ذلك استعدادها الداخلي للانزلاق لهاوية الرذيلة.

تتوالي أحداث الرواية ويستمر سعي حميدة وراء المال والحياة الفارهة المليئة بالرفاهية، واستمرت بالبحث عن عريس جاهز يدخلها العالم الذي كانت تحلم به، دون أن تضطر إلي الإنتظار لوقت أطول.

فاقتنصت رجلا غريبا عن " زقاق الدق " " فرج إبراهيم " الذي كان ينظرإليها من القهوة المقابلة لنافذتها وأغراها بكلامه المخادع،وأوهمها بحبه لها، ينتهي بها الأمر لأن تكون متعة جسدية لجنود الإنجليز، لتتعرف علي طريق آخر من الأخلاقيات تختلف عن أخلاقيات الزقاق.

تهرب حميدة من الزقاق إلي ما تعتقد أنه سيجلب لها المال والسعادة وتظن أن ما يقع خلف جدران الزقاق عالم آخر وفي رمزية واضحة عن سعي المدينة لتفكيك الوعي الجمعي للمناطق الشعبية والتهام تاريخهم ومحوه لصالح المدينة البرجوازية الجديدة.

من هذا المقتطف تتجلي مظاهر الخلل في القيم الاجتماعية وفي عادات أهل الزقاق، فنجد أثر ما احدثته الحرب علي معيشة وحياة المصريين نتيجة الحرب العالمية الثانية وأزمات الحكم وتجار السوق السوداء، فأهل الزقاق لديهم طموحات لتغيير حياتهم البسيطة إلي حياة وفيرة، والصراع الاقتصادي يؤثر علي الحياة الاجتماعية، لذلك وقع التأثير من الصراع الاقتصادي كالفقر والجريمة، والفوارق الاجتماعية.

الفقر في الزقاق يؤدي إلي ارتكاب الجرائم التي كان من صورها صنع العاهات وسرقة أسنان الذهب من الموتي، كل ذلك ينعكس علي آليات السرد القصصي وتطور الأحاث وسلوك ومصائر الشخصيات.

تدور الأحداث في رواية " زقاق المدق " ليس حول مجموعة من الأفراد وإنما تدور حول زقاق بأكمله عبر الزمان والمكان، فيبرز ويبين العلاقات الاجتماعية والقيم والأخلاق وكذلك التناقضات المختلفة التي أحدثتها الحرب والفقر بسكان الزقاق.

" إن الذي يدفع "نجيب محفوظ" إلي أن يجنح إلي الرواية الاجتماعية هو أن البطل الحقيقي في رواية "زقاق المدق" ليس "حميدة" أو "عباس الحلو " أو "فرج إبراهيم" إنما هو "الزقاق" نفسه وباقي الشخصيات في الرواية لاتقوم إلا بدور الأبعاد المجسمه للتكوين الاجتماعي والنفسي للزقاق".( )

يبرز البعد الاجتماعي في رواية " زقاق المدق" صورة المرأة في الأعمال الأدبية الواقعية لنجيب محفوظ، فهي ضحية للفساد الناجم عن الطبقية غير العادلة، فترى المرأة هنا أن الرجل منقذا لها من مشاكلها وهمومها، فقد تعرضت حميدة لضغوط مختلفة أدت إلي سقوطها بسبب قسوة الظروف التي يعيشها الإنسان في مجتمعه، فحميدة فتاة مقطوعة النسب، معدمة اليد (١) فهي تعتبر اختصارا دقيقاً لصورة الواقع الاجتماعي، يبين الكاتب أن إنحراف " حميدة " وسقطتها الأخلاقية يرجع إلي الوضع السياسي والاقتصادي الذي كانت عليه مصر في فترة الحرب العالمية

الأولي والثانية، وهذا المصير الذي نزحت إليه حميدة كان مصير كل الشبان الذين خرجوا من الزقاق بحثا عن المدينة والثراء السريع، فكان مصيرهم إما القتل مثل مقتل "عباس الحلو"، أو الإنحراف والضياع مثل "حميدة" أو دخول السجن مثل " زيطة وبوشي "

وبذلك يوجه الكاتب نقده إلي عوامل الفساد في المجتمع ويوضح أن الحل الفردي للأزمات يصل إلي طريق مسدود.

فقد وفق نَجيب محفُوظ في استغلال "زقاق المِدَق" كأسم وكمضمون استغلالاً فنياً رائعاً لصياغة روايته الخالدة فى أذهاننا إلى وقتنا هذا، فجعلها بمثابة اللوحة الجدارية الضخمة لجسد الجغرافيا وروح التاريخ في مصر خلال الأربعينيات من القرن العشرين.

فأحسن "نَجيب محفُوظ" استغلال عناصر الرِّواية، من حيث المكان "زقاق المِدَق" فهو حارة فقيرة، والشخصيات مرسومة بحرفية، وقصص اجتماعية متشابكة ومعقدة في خيط رصين، لمسات فلسفية، كوميدية سوداء وشخصيات غريبة، ومواضيع كانت ولازالت تُعد تابوهات في الأدب المصري.

تدور الأحداث في رواية "زقاق المِدَق" " ليس حول مجموعة من الأفراد فقط.. وإنما تدور حول زقاق بأكمله عبر الزمان والمكان.. فيبين ويظهر العلاقات الاجتماعية والقيم والأخلاق وكذلك تيارات الشعور المختلفة التي أحدثها الفقر والحرب بسكان الزقاق. فيحرك الأحداث حول التناقضات التي تحدث في الزقاق، فهناك الصلاح والتقوى (السيد رضوان الحسينى) والفساد والانحراف الأخلاقي (المعلم كرشة) وأيضاً مدمن المخدرات والغنى الفاحش (السيد سليم علوان) والفقر الشديد في معظم شخصيات الزقاق.. وهناك أيضاً الحب الصوفي لأهل البيت (الشيخ درويش) وهناك حب من نوع آخر وهو الحب العذري المثالي (حب عباس لحميدة) ومقابله نجد الدعارة في مدرسة (فرج إبراهيم) ".( )

فقد امتلأ الزقاق في تلك الحقبة بالشخصيات غير السوية، فالمعلم كرشة تاجر مخدرات يعاني الشذوذ، زيطة يتلذذ بعمل العاهات لراغبي التسول، عباس الحلو وحسين كرشة يتجهان إلى العمل مع الإنجليز، القواد فرج إبراهيم يتاجر بأعراض المصريات مقابل بضعة دولارات، حميدة

محترفة دعارة، إلى آخر ذلك من الشخصيات المشوهة نفسياً بفعل ظروف البلاد إبان الحرب العالمية الثانية، فحميدة وإن كانت شخصاً فرداً، إلا أنها تعكس في سلوكها صراعات أهل الزقاق، وليس عمل عباس الحلو وحسين كرشة لدى الإنجليز سوى نماذج لشخصيات تحاول الاستفادة من المغزى الاقتصادي لوجود الاحتلال، فالجميع يسعى بطريقة انتهازية للاستفادة من وجود الاحتلال، الذي أثر على الوضع الاقتصادي في مصر، وساهم في تفكيك العلاقات الأسرية والاجتماعية، ولو شئنا توسيع مجال الرؤية لقلنا أن حميدة ليست سوى نموذج قد تصادفه في العديد من المجتمعات الخاضعة للاستعمار الذي يعمل على تشويه معقولية المجتمع عن طريق خلق ثقافة مختلفة موازية لما هو سائد من أعراف وتقاليد في المجتمع.

لذا تعد رِواية زقاق المِدَق لنَجيب محفُوظ واحدة من أفضل رواياته الاجتماعية الواقعية، وقد حملت في طياتها أبعاداً فكرية وقدرات فنية عالية، وإذا كانت الحارة هي المكان المفضل عنده، فزقاق المِدَق حارة لها خصوصيتها الجغرافية والسكنية خصوصاً عندما يقتطعها نَجيب محفُوظ خلال فترة زمنية حرجة من تاريخ مصر هي فترة الحرب العالمية الثانية.

فالبيئة المكانية والزمانية لها دلالة قوية على علاقة الإنسان بالمكان والعلاقات بين الناس وبعضهم فيه، فكأنهم أسرة واحدة لها علاقاتها بالعالم الخارجي،متفاعلة معه مع حفاظها على الهوية والأصالة المميزة له والتي ظل محتفظاً بها على مدى الأزمان، وقد جاء اسم (زقاق المِدَق) مما يعني أن الكَاتب قصد تحليل المكان بما فيه من قضايا اجتماعية وسياسية.

ثانياً:البُعد النفسي:

يقول الأستاذ الدكتور محمود الضبع: "محيرة هي كتابة نجيب محفوظ، ندخل إليها بمنطق وفكر، فتفرض علينا منطقها وفكرها، ونرتكن إلى تأويل لرموزها ودلالاتها، فتفتح لنا أبواباً جديدة من التأويلات، نصفها ونرسم حدودها واتجاهاتها؛ فتعيد علينا طرح رؤى جديدة للتصنيف والمداخل" ( ).

زُقاق المِدَق، رواية اجتماعية ذات بعد فلسفي نفسي، حيث درس نَجيب محفُوظ الفلسفة التى كانت من عوامل نجاحه روائياً، فحاول كثيراً أن يوفق بين العلم والأدب والفلسفة، فكان يعاني من أزمة التوفيق بين العقيدة الدينية والاشتراكية العلمية من خلال بعض شخصيات رواياته،

ولكن من خلال دراسته المنظمة للفكر الفلسفي والسياسي وانحيازه الدائم للواقعية جعل له رؤية سياسية وفكرية.

استطاع محفُوظ فى رواياته بمهارته الفريدة أن يربط بين الشخص وذاته من جهة، وبين مجتمعه وباقي الشخصيات حوله من جهة أخرى، وكان يجعل عامل الربط بينهم هو "المكان"، فالمكان هو الرباط المقدس لهذه العلاقات كلها، لاسيما بين بواطن الإنسان الداخلية بكل ما يعتلجها من صراعات نفسية وفكرية واجتماعية، وبين كل شَخصيّة ونظيرتها من شخصيات الرواية، وبين شخوص الرواية بأكملها، فيكشف المكان الحجاب الذي يختبئ من ورائه مأساة هذه الشخوص، فهناك صور من الصراع النفسى والاجتماعى داخل شخصيات الرواية التي هي إحدى مخرجات هذا المكان بكل ما فيه من مؤثرات.

يدور الصراع الاجتماعي والنفسي بين شخصيات رواية "زقاق المدق".. حميدة هي الشخصية المحورية للرواية، شابة في ريعان شبابها، تتمتع بقدر كبير من الجمال، يفتن بها رجال زقاق المدق، يتقدم لخطبتها جارها في الزقاق عباس الحلو، ولا يكف السيد علوان من اختلاس النظر إليها، وكان يروقها ذلك فقد كانت تحب أن تكون مرغوبة من الجميع.

ترى حميدة أن الزقاق هو مساوٍ للعدمية، فهو لا شئ أمام أحلامها وطموحاتها التي تتطلع إليها.

وجدت حميدة في بادئ الأمر أن عباس الحلو هو منقذها وملاذها الوحيد من هذا الزقاق، حيث كانت تبحث دوماً عن الخروج منه، فقد كانت دائماً تهرب من سيطرة هذا الزقاق لتستسلم لخيالها الذي كان دائماً يتطلع إلى مكان الحلم.

يقول باشلار: "في الحياة حيث تبحث عن مكان تأوى إليه أو تحتمي فيه تلجأ إلى الخيال الذي يتعاطف مع الكائن الذي يسكن المكان المحمي فيجعله يعيش تجربة الاحتماء بكل تفاصيل الأمان والحماية الدقيقة" ( ).

فكانت تخرج عصر كل يوم لتجوب الشوارع وتمارس هوايتها في مشاهدة الثياب الفاخرة والسيارات الفارهة، وتحلم وتنسج من خيالها عالمها الخاص الذي يقف زقاق المدق عائقاً أمامها، لذلك كانت ترى في المال القوى الساحرة التي تجعلها تعيش حياة الأثرياء.

لذلك يترك عباس الحلو عمله في الزقاق وينضم للعمل في معسكر الإنجليز، للحصول على المال الوفير لإسعاد حميدة، لكن حميدة لم تقتنع بمحاولة عباس الذي ترك الزقاق من أجلها واستمرت في البحث عن رجل غني يحقق لها أحلامها دون انتظار وتتعلق برجل آخر هو القواد فرج إبراهيم، وهو شخصية غريبة عن الزقاق وكان معجباً بها، ما إن شعرفرج بسعى حميدة نحو المال وحياة الترف والبذخ،حتى شجعها على الذهاب بين أحضان الإنجليز في الكباريهات، مستخدمة جسدها لجمع المال والحصول على الثراء.

يعلم عباس بعد عودته من التل الكبير بهروب حميدة من الزقاق لكنه لم يتفاجأ بهروبها، وكأن الهروب يليق بطموحها،فخرج باحثاً عنها، وعندما يجدها على ما أصبحت عليه تبرر له أن حياتها الجديدة ليست إلا حياة شقاء وعناء. وذلك بعد أن رفض فرج إبراهيم الزواج منها، وما هي بالنسبة له إلا سلعة مربحة له يتهافت عليها الجنود الإنجليز فكأن هروبها من الزقاق كان عقاباً لها بسقوطها في عالم البغاء والرذيلة.

وعندما يحاول عباس انتزاعها من هذا المستنقع يقتل على أيدي أحد جنود الإنجليز ويعود إلى الزقاق محمولاً على الأعناق وهو يدافع عن شرفها المسلوب، يتجلي الصراع النفسي بين شخصيات الزقاق، البعض منهم سلوكهم جيد وحياتهم بسيطة ويشعرون بالسعادة، وبعضهم لا يكتفي بهذه الحياة البسيطة، ساخطين عليها متطلعين إلي حياة جديدة أفضل.

تمثل حميدة رمز التمرد في رواية "زقاق المدق" فهي المرأة الوحيدة الخارجة عن تقاليد الزقاق خرجت للبحث عن حياة أفضل خارج نطاق هذا المكان، وهي المرأة الوحيدة الخارجة عن تقاليد الزقاق فهى تعكس الصراع الدائر داخل نفوس أهل الزقاق، فهي تبحث خارج الزقاق عن رجل يحقق لها ما تصبو إليه من حياة ميسرة ومرفهة، فهي تبحث عن زوج يرتدي البدلة الأروبية، وليس الجلباب البدي مثل أهل الزقاق وتسقط حميدة في براثن القواد " فرج إبراهيم " وانحرفت عن مباديء وأخلاقيات الزقاق.

حميدة وإن كانت شخصا فردا، إلا أنها تعكس في سلوكها صراعات كثير من أهل الزقاق، فقد سبقها "حسين كرشة" في الهروب من الزقاق، ذلك الهروب أوالخروج من الزقاق نابع من صراع داخلي قوي يدفعهم للهروب إلي عالم واسع دون قيود حيث المال والحياة الرغدة.

يتجلي الصراع النفسي بين شخصيات الزقاق، البعض منهم سلوكهم جيد وحياتهم بسيطة، ويشعرون بالسعادة وبعضهم لا يكتفي بهذه الحياة البسيطة، ساخطين عليها متطلعين إلي حياة جديدة أفضل ومن خلال تتبع أحداث الرواية يتضح لنا البعد النفسي الذي كان يعاني منه شخصيات الرواية.

لقد امتلأ الزقاق في تلك الحقبة بالشخصيات غير السوية، فالمعلم كرشة شخصية محيرة، تدهور حاله من فتى ثائر وعضو فاعل في ثورة ١٩١٩ إلى بلطجي وتاجر مخدرات يعاني من الشذوذ الجنسي.

– "الدكتور بوشي" لم يكن دكتورا في الطب ولا في العلوم، لكنه أخذ لقب الدكتور بالسطو على أفواه الموتى لسرقة أطقم الأسنان الذهبية وبيعها من أجل المال فكان نموذجاً للاستغلال واستباحة حرمة الموتى.

– "زيطة" صانع العاهات هو شكل من أشكال الشر امتهن صنع العاهات لطالبها لاحتراف الشحاذة.

– "حسين كرشة" الذي ترك العمل في قهوة أبيه لاختلافه معه والتحق بخدمة المعسكرات البريطانية من أجل اكتساب المال، فكان يعلن للجميع كراهيته للزقاق وأهله وتطلعه إلى حياة جديدة.

– "سنية عفيفي" صاحبة العقار والدكاكين فهي نموذج للمرأة المتصابية التي تبحث عن عريس شاب مستغلة أموالها لإشباع رغباتها.

– "أم حميدة" الخاطبة ناقلة الأخبار التي لا يهمها إلا القيل والقال، ولا يكاد يفوتها شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحي أو بيت من بيوته.

– "حسنية الفرانة" التي لا تقل شراسة أو قوة عن أم حميدة وأم حسين كرشة، فكانت تضرب زوجها بكل قسوة وقوة دون تردد.

تطالعنا أحداث الرواية بشخصية فرج إبراهيم وهو شخصية مخادعة تبث السموم في المجتمع فمهنته هي المتاجرة بأعراض المصريات من أجل بضعة دولارات، فقد استطاع بخبثه أن يخدع حميدة لتسقط في شباكه فقد أوهمها بأنه يريد الزواج منها، لكنه كان يبغي البغاء وكانت ضحيته للرذيلة والفساد.

– "عم كامل" رمز للاستسلام في الرواية فلا يفكر إلا في الموت، لذلك اشترى له البوشي كفناً.

– "اليهودي" السمسار اليهودي، يحسبه الجاهل صديقاً، لكنه في الحقيقة نمر يتوثب، والويل لمن يتمكن منه، وهو عدو ما من صداقته بُد، بل هو شيطان مفيد كما يراه التاجر سليم علوان

– يقابلنا "الشيخ درويش" في الرواية وهو شخصية منعزلة عن الحياة هجر أهله ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى منتقلاً إلى حال السلام والطمأنينة.

ثم تأتي شخصية "رضوان الحسيني"، وهو يمثل الشخصية الإسلامية المعطاءة الفعالة، وقد جعله الكاتب شخصية إيجابية تلعب دورا في المجتمع.

من خلال تتبع أحداث الرواية يتضح لنا البعد النفسي الذي كانت تعاني منه شخصيات الرواية في زمن الحرب العالمية الثانية، حيث انقسم سكان الزقاق إلى قسمين، قسم ساخط ناقم على حياة الزقاق، وقسم ساعٍ للحياة المادية المرفهة بعيداً عن الزقاق وهي حياة مرتبطة بتداعيات الحرب ونتائجها.

فشهد الزقاق نهايات مأساوية لكثير من سكانه الذين تركوه نحو التطلع إلى حياة أفضل، فكانت العواقب وخيمة، حيث تمردت حميدة عن الزقاق وتطلعت إلى حياة البذخ والرخاء ففقدت شرفها وضاع منها في النهاية كل شيء، عباس الحلو الذي ترك الزقاق وذهب للعمل في الجيش

الإنجليزي سعياً لتوفير المال لإسعاد حميدة، تضيع منه حميدة وتضيع حياته نفسها، حبه لحميدة أودى بحياته فخرج منه في البداية من أجل أن يحقق أحلامها وعاد إليه ميتاً وهو يحاول الانتقام من القواد الذي أغواها فيدفع حياته ثمناً لذلك.

وتجارة سليم علوان غير المشروعة وقيامه بخطبة حميدة وهي مخطوبة لعباس الحلو، وأكله لصنية الفريك وحده من دون أهل الزقاق الفقراء، التي كانت تمر أمام أعينهم الجائعة، كل ذلك نتيجته كانت إصابته بمرض أصاب جسده وعله أفقدته متعة الحياة وجمالها.

ينتهي المطاف بالمعلم زيطة والدكتور بوشي إلى السجن بعدما ألقى القبض عليهما خلال سرقتهما طقم أسنان ذهب لأحد الموتى.

بالرغم من معاناة أهل الزقاق من غياب العدالة الاجتماعية إلا أن النسق الأخلاقي لدى الكاتب كانت القاعدة التي حكمت الجميع، وعاقبت كل من خرج عن عادات الزقاق وتقاليده الموروثة وثوابته.

ثالثاً: البُعد الجسمي:

نجح نجيب محفوظ في خلق شخصيات روائية يتماهي معها القاريء ويعتقد يقينا بأنها شخصيات بشرية نقلها الكاتب إلي أوراق روايته فقد ظهرت براعته في انتقاء شخوصه ووضعها في مكانها المناسب في الرواية، فنجده قد جسد الحالة الاجتماعية والطبقية والثقافية من خلال شخوصه كما هو الحال في الواقع الذي نعيشه.

حيث تعامل مع الشخصية الروائية معاملة الكائن الحي في وصف ملامحهم الخارجية مثل الطول، السن، الوجه، الملابس...، والأمور الداخلية مثل الهواجس، والحب، والأهواء، والأفكار، مع ذكر انتماءها الفكري والسياسي إلي جانب البعد الاجتماعي.

إن تطور الوصف في رواية زقاق المِدقَ يعد وسيلة لإظهار المقدرة فيظهر العلاقة بين الشخصية وبين المكان الذي يوجد به، وإنما الوصف هنا ذو دلالة عميقة، لأنه يوضح أبعاد المواقف المادية والنفسية.

لم يترك نجيب محفوظ شخصية من شخصيات روايته "زقاق المدق" إلا وقد وصفها وصفاً دقيقاً، وقد انقسمت بطبيعتها إلى شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية وأخرى عابرة.

أ – الشخصيات الرئيسية:

وهي التي تقوم بدور رئيسي في الرواية وتحتل مكانة بارزة فيها ومنهم الفتاة الشابة المتمردة حميدة، التي قادها طموحها لحياة أفضل في الوقوع في الرذيلة.

يقدمها الكاتب بوصفه لها: "كانت في العشرين متوسطة القامة رشيقة القوام نحاسية البشرة، يميل وجهها لطول في نقاء ووراء، وأميز ما يميزها عينان سودوان جميلتان" ( ).

تتمتع حميدة بالجمال والأنوثة، وهو اسم على غير مسمى فهي لم تحمد الله أبداً على ما أنعم عليها من جمال، فهي ترى أنها بالشيء الكثير على الزقاق العفن العدم كما تصفه، وعلى سكانه، فقد نشأ داخل حميدة شعور بالقسوة والتعالي والغضب على سكان ذلك الحي.

ثم يأتي عباس الحلو صاحب دكان الحلاقة الصغير، فهو شاب متوسط القامة ميال للبدانة بيضاوي الوجه، بارز العينين، يرتدي بدلة ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات، كان شخصاً وديعاً، دمث الخلق، طيب القلب، حسن المنظر، أنيق يميل بطبعه إلى المهاونة، والمصالحة والتسامح، هذه الأوصاف التي أضافها الكاتب عليه جعلت منه نموذجاً للشاب الصالح الذي عرف بحبه للزقاق "أنا والله أحب زقاقنا وأحمد الله على ما يرزقني به"( )، كما كان يحب أهل الزقاق لأدبه وأخلاقه.

يمثل حسين ابن المعلم كرشة الذي كان في مثل لون أبيه الضارب إلى السواد ابن العشرين عاماً، الاتجاه المعاكس لصديقه عباس الحلو فقد كان يمقت الزقاق وأهله فقد "اجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتاً للزقاق وأهله، أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله، ويتطلع لحياة جديدة"( )، اشتهر حسين بالنشاط والحذق والجرأة وكان قد اشتغل في بادئ الأمر في قهوة أبيه المعلم كرشة لكنه تركها لاختلافهما "وعمل بدكان الدراجات، ولبث بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانية" ( ).

تطالعنا أحداث الرواية بظهور فرج إبراهيم وهو شخصية غريبة عن الزقاق والذي يحدث أثراً كبيراً في حياة حميدة فكان ينظر إليها من القهوة المقابلة لشباكها وكان يجلس يومياً على القهوة أمام نافذتها واستطاع أن يوهمها بالحب وبأن مثلها لا يليق بحياة الزقاق، مؤكداً لها أنه سيأخذها إلى حياة الترف والرفاهية، فرغبتها العارمة في التخلص من الزقاق وساكنيه جعله يتمكن من الإيقاع بها بسهولة، بمحض إرادتها وسقوطها في عالم يبغض الفضيلة، فكانت سقطتها الأخلاقية هي التي سمحت لها بالخروج إلى العالم الجديد لتستقبل حياة جديدة، تحترف فيها الرقص بكل أنواعه وتلاطف الجنود الإنجليز بلغتهم، فجنت الكثير من المال، حتى أنها تخلصت من اسمها واستبدلته باسم جديد "تيتي" فهو اسم يليق بحياة المدنية ويواكب نمط حياتها الجديد.

أم حميدة الخاطبة: وهي أمها بالتبني حيث كانت صديقة أمها الحقيقية وكانت تتوسط للراغبين في الزواج داخل الحي فقد كانت تعكس نموذجا قد تم التعرف عليه في مصر يصفها الكاتب بأنها "ربعة ممتلئة في الستين، ولكنها معافاة قوية، جاحظة العينين، مجدورة الخدين، ذات صوت غليظ قوي النبرات، فإذا تحدثت فكأنها تزعق، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزاع" ( ).

نستشف من خلال هذا الوصف لمظهرها الخارجي أنها امرأة تملك شخصية قوية لا يستهان بها.

كما أنها "كانت بحكم وظيفتها خاطبة ودلالة، عميقة الملاحظة كثيرة الكلام بل كانت لساناً لا يكف ولا يمسك ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحي أو بيت من بيوته، فهي مؤرخة راوية لأخبار السوء ومعجم المنكرات" ( ).

المعلم كرشة الطويل والنحيل صاحب القهوة المسماة باسمه كان شاذا جنسياً، وإذا حدثوه في ذلك قال لكم دينكم ولي دين، لذلك كانت زوجته على خلاف دائم معه فكان "يمضي سهرته الليلية بعيداً عن البيت، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كل منتصف ليل ليمتد بهم السهر حتى الفجر" ( ).

على الرغم من أنه كان في البداية رجلاً ثائراً فقد كان عضواً في ثورة ١٩١٩ لكنه تحول مع أحداث الرواية إلى رجل مخدرات مسلوب الإرادة.

ب – الشخصيات الثانوية:

تتنامى شخصيات الرواية لتبرز مع كل فصل شخصيات جديدة فنتعرف على "رضوان الحسيني" إنه شخص فلبه ممتلئ بالدموع وعيناه مثقلتان بالحزن.. ذاق مرارة الخيبة حتى ملأ قلبه باليأس، وكان كلما نكد الزمان عنتا ازداد صبرا وحباً، مما جعله يتصدى لأوجاعه وآلامه بالصبر".( )

يمثل "رضوان الحسيني" في الرواية النقاء والطهارة والعطاء، كما وصفه الكاتب، وبالرغم من النهاية المأساوية للرواية إلا في بارقة أمل تظهر حينما يعود رضوان الحسيني من الحج.

لم تكن شخصية رضوان الحسيني نموذجا سلبيا للمسلم الغارق في طقوس دينية يؤديها ولا يعمل بها، فقد كان يتدخل في الخلافات ناصحاً ومصلحاً.

"الشيخ درويش" كان يقوم بدور كبير في الحي فهو شخصية متعلمة كان مدرساً للغة الإنجليزية ولكن تم نقله إلى وزارة الأوقاف كان يتنبأ بما سوف يحدث لذلك كان يقول عنه العامة بأن الوحي ينزل عليه باللغتين العربية والإنجليزية.

"العم كامل" هو صديق عباس الحلو، وكان يشاركه السكن، ويملك دكان لبيع البسبوسة يقدمه النص على أنه: "هو كتلة بشرية جسمية، ينحصر جلبابه عن ساقين كقربتين، وتتدلى خلفه عجيزة كالقبة، مركزها على الكرسي ومحيطها في الهواء، ذو بطن كالبرميل، وصدر يتكور ثدياه، ولا ترى له رقبة، فبين الكتفين وجه مستدير" ( ).

يظهره النص على أنه إنسان بسيط عرف بنومه الدائم حتى في ساعات العمل، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو.

"سليم علوان" هو صاحب الوكالة الكبيرة المجاورة لصالون الحلاقة، وهو التاجر الغني والمستفيد من ظروف الحرب الأولى ثم الثانية، وهو أب لثلاثة أولاد فضلوا التعليم عن التجارة، فكان منهم الطبيب والمحامي والقاضي، وأب لأربع بنات تزوجن جميعهن، وكان قد عرض الزواج

على حميدة، رغم علمه بخطبتها من عباس الحلو، وقد وافقت حميدة عليه رغم أنه متزوج إلا أنه كان أغنى رجل في الحي كله، إلا أن الزيجة لم تتم لمرض أصاب جسده، فكان قبل أن يصاب بالمرض "ملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان، جسمه البدين المتين، ووجه الممتلئ المورد، وحيوته الشابة المتوثبة" ( ).

لكنه بعد العلة التي أصابته اختفى كل هذا الوصف فأصبح ضعيفاً وفرغ جسمه الممتلئ.

"زيطة" هو شخصية مختلفة عن باقي الشخصيات شكلاً ومضموناً، فهو شخص لا يرى له أثر في النهار، يعيش في بؤس شديد، مستأجر خرابة من المعلمة حسنية تجنبه أهل الزقاق لرائحته النتنة، فلم يكن الماء يعرف سبيلاً إلى وجهه أو جسده، كانوا يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم في الحي، وقد بادل الناس مقتاً بمقت عن طيب خاطر، كان يصنع العاهات لمحترفي الشحاذة، يجيئونه صحاحاً ويغادرونه عمياناً أو مبتوري الأذرع أو الأرجل، ومع ذلك كان الشحاذون أحب البشر إلى نفسه.

شخصية "التمرجي" الذي يدعى "بوشي" فقد كان أهل الحي يطلقون عليه الدكتور بوشي، فكان يشتغل تمرجي في عيادة مع طبيب أسنان وكان يقوم بسرقة أسنان الموتى المصنوعة من الذهب، ويقوم ببيعها مقابل المال.

"سنية عفيفي" هي امرأة في الأربعين من العمر، وهي أرملة ثرية تمتلك الكثير من المال والدكاكين، كما أنها تؤجر بيت بثلاثة طوابق في الزقاق، كانت لا ترى في نفسها إلا الجانب الإيجابي، الأمر الذي دفعها بالبحث عن عريس شاب "نظرت في المرآة بعين غير نافذة أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا، فعكست المرآة وجهاً نحيلاً مستطيلاً فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب".( )

حسنية الفرانة هي زوجة جعدة وتمتلك فرن في الحي، توصفها أحداث الرواية بأنها امرأة قاسية قوية شرسة تضرب زوجها وتعامله معاملة الكلاب الضالة.( )

وبالرغم من هذه المواصفات المنافية للأنوثة إلا أن زيطة كان معجباً بها وكان يصفها بأنها امرأة بقرة( )، وذلك لضخامة جسمها.

ج – الشخصيات العابرة:

"سنقر" صبي القهوة الذي يقوم بخدمة الزبائن ويفعل ما يأمره به "المعلم كرشة".

"جعدة" هو زوج المعلمة حسنية الفرانة، الذي لم يسلم من ضرب زوجته، ولا من شبشبها الذي تضربه به.

"الشيخ العجوز" الملقب بالشاعر حيث يقبل على القهوة يقص عليهم القصص والحكايات كل يوم منذ عشرين عاماً إلى أن يمنعه المعلم كرشة في أحد الأيام عن الحكي لأن الناس ملوا سماع هذه القصص ويريدون سماع الراديو.

ربط محفوظ شخصياته بالزقاق ربطاً محكماً، وجعل الزقاق مسرحاً لالتقاء مسحة من شؤم الواقع بمسحة من شؤم المصير. إن اختياره مفردة "زقاق" بعينها توميء همساً إلى أن الزقاق لا يفضي . على الأغلب . إلى منفذ أو خلاص أولاً، وتشير ثانياً إلى أن أشخاص الرواية كانوا زقاقيين بمعنى أن حياتهم لم تكن ذات انفتاح على نجاة أو رغد أو اغتباط. والزقاق، في اللغة، شويرع لا منفذ له، أو أنه شارع ضيق كممر له منفذ ضيق. ( )

فبهذه الأدوات الفنية المتنوعة لتقديم (الشخصيّة الروائية) تحيا الشخصيّة داخل صفحات كتاب، وتكتسب من العمق والحيوية ما يجعلها شَخصيّة خالدة، حيث استطاع محفوظ أن يصور الشخصيّة التي خلقها من النماذج التي شاهدها في الحَياة ومن ذات نفسه، وهو في تقديمه للشخصيّة يجعلها تتحدث عن نفسها وتفصح عن شعورها، ويترك في نفس الوقت فرصة للآخرين في الرواية للحديث عنها، بذلك كله يعرف القارئ عن الشخصيّة الروائية أشياء لا تعرفها هي عن نفسها، فعلى القارئ إذن كما يقول جان بول سارتر: "أن يكتشف البطل وأن يحاكمه في نفس الوقت" ( ).

"على هذا يكون ضياع الزقاق (رمزاً) لضياع أكبر هو ضياع وطن بأسره في فترة قائمة من حياته تعبر عنها الرواية في قوة وتماسك، سواء من حيث الشكل الفني أو المضمون الفكري اللذان ينبعان أساساً من الفلسفة العميقة للرواية".( )

فلا يمكن فصل القصة عن المعنى لأنه العمل الأدبي ليس رداء روائياً لأفكار مجردة ولأن المواقف ليست شعارات، ولأن الشخصيات ليست مجرد شطائر بشرية تجيش بالشعارات أو بالنصائح الأخلاقية، والعمل الخلاق لا يتخذ شكل الرمز إلا لأن الكاتب لا يستطيع أن يعبر بطريقة أخرى، عما يريد أن يقول ولأن المعرفة لا يكمن أن تنفصل عن الصورة التي تتجسد فيها".( )

وقد بدا من خلال شخصيات الرواية، بمكانتها الرئيسية والثانوية والعابرة، وبحسب الوظائف والمهام التي قامت بها كل شخصية في زقاق المدق، كانت بمثابة مرآة عاكسة للمجتمع المصري عامة، والطبقة الشعبية خاصة في تلك الفترة الحرجة، من تاريخ مصر أيام الحرب العالمية الثانية، فقد استطاع محفوظ أن يقدم صورة عميقة للبيئة الحقيقية في زقاق صغير من أزقة القاهرة، وذلك من واقع تقديمه لكل شخصية بكل أبعادها من خلال إعطاء وصف دقيق لهم ولأحوالهم النفسية.

فيتضح أن:

- حميدة بائسة عاهرة.
- عباس الحلو وقور وقانع بحياته.
- المعلم كرشة منحرف وشاذ جنسياً.
- زوجته مهجورة وصارمة تريد الحفاظ على بيتها واستقراره.
- عم كامل ساذج وبسيط يمثل هامش الحياة.
- سليم علوان فهو الغني المتكبر الذي أصابه المرض.
- الشيخ درويش الذي يتعرض لصدمة عصبية يفقد فيها عقلة ويتحول لدرويش فهو خائب منعزل.
- حسين كرشة طموح ناقم على بيئته وفقره فهو ساخط متكبر.

– إبراهيم فرج القواد هو صاحب العالم الجديد المزيف خارج الزقاق فهو فاجر ومنحل.

– السيد رضوان الحسيني فهو النقيض المباشر لأي شخصية منفلتة ناقمة على الحياة في هذه الرواية، فهو الراضي بقضاء الله في جميع الأحوال.

– زيطة صانع العاهات فهو حذر ومنعزل.

– الدكتور بوشي فهو جاهل محتال.

– أم حميدة الخاطبة فهي فاشلة وثرثارة.

– سنية عفيفي المرأة المتصابية التي تدعوها طبيعتها للعيش في كنف رجل

– حسنية الفرانة صاحبة الشخصية الشرسة القوية التي تقود زوجها وتعنفه.

مثلت شخصيات هذا الزقاق الصغير معظم صفات النماذج البشرية بما فيها من خير وشر، قوة وضعف، وفاء وغدر، حب وكره، ثراء،وفقر،وكأننا نتعامل مع أناس حقيقيين نلتمس حياتهم ومعاناة الفقر الذي يتخبطون فيه وما نتج عنه من قهر نفسي دفع بالكثير منهم إلى الهروب من الواقع والتطلع إلى حياة أفضل.

طرح نجيب محفوظ بعض القضايا الهامة في روايته واستغل موهبته الأدبية للكشف عن الحقائق الاجتماعية السائدة في المجتمعات التي تعاني من الحرب، وقد عرض هذه القضايا بطريقة عمومية حتى تصلح لكل زمان ومكان، فهذه القضايا مستمرة باستمرار الوجود البشري، ومن ثم يستطيع القارىء في عصرنا الحاضر الاستفادة منها والاتعاظ بها. فيقدم الحلول المباشرة للمشكلات الاجتماعية السائدة في أحداث الرِواية.

وقد اعتمد في تقديمه لهذه القضايا علي وصف ملامح الشخصية الجسمانية علي حسب القضية التي تناقشها الشخصية.

أهم هذه القضايا التي تناولها محفوظ في روايته " زقاق المِدَق "

١ – قضية الدعارة:

يقدم عالم محفوظ في رواية "زقاق المدق" شهادة متكاملة عن جوانب الحياة المصرية كافة، الايجابي منها والسلبي، وفي هذا يشير إلي رؤيته من موقف الدعارة دون النظر إليها من الزاوية التي تتعرض للإدانة من المنظورين الديني والأخلاقي.

يري محفوظ أن المرأة الفقيرة لم تحظ باحترام المجتمع بل وقعت ضحية في يد أهل الفساد، فوقوع "حميدة" في الرذيلة كان بسبب تفشي الفساد السياسي والاقتصادي في البلاد وأثره علي الأمر.

"حميدة" في زقاق المدق، فتاة جميلة فقيرة مقطوعة النسب مغرمة بالمال ترسم في خيالها طريق الدعارة الذي سيوفر لها الحياة المرفهة، بحصولها على الأجور المرتفعة من الجنود الأنجليز في فترة قصيرة، فحياتها الأولى حياة بائسة دفعت بها إلى البحث عن وسيلة سريعة لجمع المال الوفير دون كد أو عناء، وما ساعدها في هذا التهاون هو جهلها وطمعها في الحصول على المال.

وهذا الحب للمال دفع بها إلي أن تقع في براثن القواد "فرج إبراهيم" فهو يدير العمل وينظمه ويسيطر علي طرفي العلاقة: المرأة التي تبيع الجسد، والرجل الذي يشتريه.. الأمر الذي كان يجعله يرد في نص الرواية أنه " سمسار السعادة في الدنيا " فهو يدافع عن مهنته ويضفي عليها أجواء بعيدة عن النفوذ.

ركز نجيب محفوظ على صورة العاهرة في رواية "زقاق المدق" لأنها كانت منتشرة ومعترف بها من قبل الحكومة قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، بالإضافة إلى رغبته في كشف المسكون عنه في المجتمع الذكوري الذي يشبؤ المرأة ويسلع جسدها ويجعل منها عاهرة رغم أنفها ويدفعها لأن تعيش من جسدها نتيجة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القاهرة.

٢- قضية الفقر:

طرح نجيب محفوظ من خلال روايته " زقاق المدق " قضية الفقر ومعاناته وتطلع هؤلاء الفقراء في زقاق المدق إلي المال والثراء وحياة أفضل، فالحياة الأفضل لا تأتي في نظرهم إلا بعد الخروج من هذا الزقاق العدم.

فكان الفقر قضيتهم وصراعهم القائم الذين يتخبطون فيه وما نجم عنه في أنفسهم من قهر نفسي واجتماعي دفع بالكثير منهم إلي التطلع والهروب من الواقع وما نشأ عن ذلك من صراع وحقد وحسد، وتطلع هؤلاء الفقراء إلي نيل ثروة تضاهي ثروة أولئك الأغنياء، بجانب إزدراء الأغنياء للفقراء،إن هذا الحقد أو العداء الطبقي نراه يتنوع علي مواقف مختلفة من الرواية.

أدت أزمة الفقر في الرواية إلي أن يشوه زيطة الشحاذين ليكتسبوا عن طريق العاهات المصطنعة لقمة خبز جافة، وإلي أن يسجن التمرجي بوشي وزيطة أثناء سرقة طقم أسنان ذهب من أحد أفواه الموتى وبيعه مقابل الكثير من المال.

نري أن شخصية حميدة في زقاق المدق، وإحسان شحاته في القاهرة الجديدة، ونفيسة في بداية ونهاية، هم ضحايا ظروف الفقر في المجتمع ويمكن تفسير الدعارة واحترافها كمهنة علي أنه احتجاج علي النظام الاجتماعي والأخلاقي السائد آنذاك وإدانة لنظام الحكم الذي لم يمكن أفراد الطبقة الدنيا من أن يعيشوا حياة كريمة..

٣- قضية التفكك الأسري:

تضمن العلاقة الأسرية المتكاملة للفرد الحياة المثالية والمعيشة السعيدة إلا أننا نلاحظ في هذه الرواية معاناة الشخصيات من تفكك العلاقات الأسرية الذي أثر علي حالتهم النفسية الصعبة.

فمثلا " حميدة " يتيمة الأب والأم وترعاها أمها بالتبني ولا تحسن تربيتها، فلم تجد من يوجهها ويقف بجوارها ويرشدها ويغرس فيها كل القيم والمعاني الشريفة،التفكك الأسري أو التصدع الأسري، هو حالة من الخلل الوظيفي بين أفراد الأسرة بشكل عام وبين الأب والأم بشكل خاص باعتبارهما أصحاب الأدوار الأساسية، فغياب أحدهما يؤدي إلي فشل في الدور التربوي حيث ينخفض مستوي مساهمتهما في عملية التنشئة الاجتماعية وفي بناء شخصية الفرد وضبط سلوكه وتوجيهه وفق متطلبات الحياة.

وهناك نوعان من التفكك:

أ. التفكك النفسي: وهو يشير إلي التواجد الجسدي أو الجسماني فقط لأحد الأبوين أو كلاهما مما يؤدي إلي نشوب اختلافات مستمرة تقلل بدورها احترام أفراد الأسرة لبعضهم البعض مما يقلل شعور الأبناء بالانتماء.

ب. التفكك البنائي: وهو ينشأ نتيجة غياب أحد الأبوين أو كلاهما

للتفكك الأسري دور هام في وجود السلوك المنحرف، وذلك نظرا لغياب أحد الأبوين أو كلاهما ويعد هذا الغياب غياب جزء من السلطة التوجيهية مما يعرض الفرد إلي القلق والشعور بالحرمان والاضطهاد ويشكل هذا ميلا لممارسة السلوك الإجرامي والاتجاه نحو الانحراف.

٤- قضية فساد السلوك المجتمعي:

الفساد المجتمعي بمختلف أنواعه آفة اجتماعية ولا بد من محاربة كل أنواع وظواهر الفساد لأجل تطهير المجتمع من ذيول الفساد الذي يشكل خطراً داهم يمس كل مظاهر الحياة.

ويعتبر الفساد ظاهرة اجتماعية مخالفة للقيم والضوابط التي يقوم عليها المجتمع، يعد الفساد علي اختلاف مظاهره المعوق الأكبر لكافة محاولات التقدم فهو يعد انهيار للنسيج الاجتماعي، وتفشي لروح الكراهية بين طبقات المجتمع نتيجة غياب العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

بمعني أن الواقع الاقتصادي له عامل كبير في الحد من فساد السلوك المجتمعي وأيضا الابتعاد عن قيم وعادات وتقاليد المجتمع.

صور لنا الكاتب السلوكيات السيئة في مجتمع زقاق المدق، فقد انتشر مرض الرذيلة في الزقاق والعلاقات غير الشرعية وكثرت اللصوص، وانتشرت المخدرات بين أبناء الزقاق، خاصة أن المعلم كرشة قد سهل لهم المكان لفعل الرذيلة من خلال المقهى الذي يمتلكه، لكنه في نهاية أحداث الرواية ندم على خيانة كل من أعطاه الثقة من أفراد مجتمعه، فتنحى عن سلوكه السيء ليكتسب ثقة الناس مرة أخرى، ذلك لأن هذه الانحرافات ظلت مرفوضة في نظر المجتمع.

يرجع الهدف من إثارة مثل هذه القضايا المجتمعية هو إيقاظ القارئ من غفلته وإطلاعه على مشاكل المجتمع التي تحيط به، لإيجاد حلول مناسبة لهذه القضايا حتى تتلاشى جميعاً بمساعدة

جميع أفراد المجتمع من معلمين ورجال دعوة، ومؤسسات اجتماعية، وبتحقق هذا الهدف تكون الرواية قد أدت رسالتها في الحفاظ على المسئولية الاجتماعية الجماعية.

٥- قضية الإرشاد النفسي بين المجتمع :

يعد الإرشاد أحد أهم فروع علم النفس التطبيقي وهو علاقة بين طرفين أحدهما متمكن ولديه خبرة بكافة مناحي الحياة المجتمعية بحيث يستطيع تقويم سلوك الأفراد فيمن حوله ويسمي المرشد أو القائد والطرف الآخر متلقي.

والإرشاد ليس بالضرورة وضع حل جذري للمشكلة بل هو عملية تبصيرية تنويرية للشخص صاحب المشكلة لإيجاد حل أو عدة حلول وبدائل، ولتحقيق التوافق المجتمعي لابد من تحقيق التوافق النفسي، ويحتاج ذلك إلي الإرشاد النفسي بين أفراد المجتمع أياً كانت هوية هذا المجتمع وديانته.

يمثل هذا النموذج الإرشادي في رواية "زقاق المدق" شخصية "رضوان الحسيني" رجل الدين الذي اتخذ طريقه في نصح الناس وإرشادهم إلى طريق الخير والصواب والتخفيف من مآسيهم وهواجسهم ومخاوفهم فكانت حاجة بعض أهل الزقاق للإرشاد النفسي أكثر من حاجتهم للأموال، فهم يريدون من خلاله تذوق الطمأنينة والراحة النفسية، ليجدوا ما يستظلون به بعيداً عن ظلم الواقع الأليم عليهم.

٦. قضية تربية المجتمع:

لا يقتصر مفهوم التربية فقط علي الأسرة بل علي المجتمع بأسره حيث تتداخل العوامل المؤثرة في العملية التربوية ويعد المجتمع من أهم تلك العوامل.

وتعد الأسرة ووسائل الإعلام والثقافة الاجتماعية من أهم العناصر المؤثرة في صياغة التأثير المجتمعي علي الأفراد وكذلك انتماءات الشباب وقناعاتهم، فكل ذلك ينشأ تدريجيا ويتشكل ضمن عدة مواقف متراكمة.

لذلك كان لزاماً على كل فرد من أفراد المجتمع أن يساند بعضهم البعض لكسر قيود الاستعمار، بتقديمهم الآراء الرشيدة والنصح والارشاد.

ولم يغفل الإسلام عن دور التربية في التأديب النفسي وتحسين الروح الإنسانية: فهي تشمل جميع أبعاد الإنسان من روح ونفس وجسد متكاملين.

إن الحرب بآثارها المادية والاجتماعية هي أول محرك لمأساة الزقاق التي أدت بحميدة إلى الانحراف وإلى قتل عباس الحلو وإلى تشرد حسين كرشة وزوجته وأخيها، وإذا كانت الحرب فساداً جلبه المحتل الأجنبي فهناك عامل آخر محلي وهو الانتخابات المزيفة، فالمرشح الذي ساوم المعلم كرشة على أصوات الحي، جلب معه فرج إبراهيم الذي قاد حميدة إلى الدعارة، فهي منظومة فساد كاملة وليس الأمر محض الصدفة.

ولقد أماط نجيب محفوظ اللثام عن المشاكل الاجتماعية التي أحاطت بـ"زقاق المدق" وأهلها، والتي أراد الكاتب الاستعارة بها عن "مصر" جميعها، قاصداً في ذلك لفت أنظار الدولة التي تحمل المسئولية تجاه الوطن والمواطن المسكين، مثيرا في ذلك التخبطات والمشاكل النفسية التي حلفت بداخلهم جراء الظروف الاجتماعية والاقتادية السيئة، آملا منهم إيجاد الحلول المناسبة لقطع المعضلة، جذرياً قبل تفاقهما داخل المجتمع المصري.

المراجع

١. غالي شكري، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، الهيئة العامة للاستعلامات، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

٢. محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، مختار الصحاح، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، باب الزاى "ز ق ق".

٣. نجيب محفوظ، زقاق المِدَق، مكتبة مصر،١٩٤٧.

٤. نبيل راغب، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥

٥. طه وادى، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٠م.

٦. محمود الضبع، أزمة النقد وانفتاح النص.. نجيب محفوظ والفنون السبعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٧. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.

٨. على شلق، نجيب فى مجهوله المعلوم، دار المسيرة للطباعة والنشر، ١٩٧٩.

٩. أدباء معاصرون: سارتر ترجمة جورج طرابيشي

١٠. روجيه جارودي، واقعية بلا ضفاف، ترجمة حليم طومسون، الكاتب العربي.